

## مقدمة في النقد الثقافي

□ د. عبد النبي اصطيف

عليك بالنقد الثقافي، هذه هي النصيحة الذهبية التي توجه إلى دارسي الأدب العربي القديم والحديث هذه الأيام، فالنقد الثقافي هو آخر تقليعات الدرس النقدي في العالم، وإذا ما شئت أن تكون معاصراً أو حتى راهناً في دراستك، فإن عليك أن تطبق "تعاليم" النقد الثقافي على النصوص التي تريد تدبرها، وأهم هذه التعاليم الوقوع على "النسق" الذي يحكم إنتاج هذه النصوص وتفسيرها، إذا ما رغبت في اتباع منعرج الغدامي في كتابه النقد الثقافي(1)؛ أو أن تستكشف صلات هذه النصوص بسياقاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وتقترب بذلك من ممارسات دارسي الأنثروبولوجيا الثقافية، إذا ما تناهى إلى سمعك بعض ما راج عن ممارساته الأولى المبكرة في بريطانيا بشكل خاص.

الفترة ربما كان من أهمها نهوض الطبقة العاملة في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، والرخاء الذي نعمت به في أثناء ذلك، وما أنتجه هذا الاهتمام بدوره من أشكال ثقافية فرضت نفسها على دارسي النقد الأدبي في بريطانيا الذين استخدموا أساليبه وتقنياته في تدبر هذه الأشكال، ولكنهم في الوقت نفسه تجاوزوها إلى أدوات وتقانات وأساليب تحليل استمدوها من العلوم الاجتماعية والتاريخ، ولاسيما التاريخ الاجتماعي.

والحقيقة أن ما يلاحظ في هذه النصيحة العجلى هو عنايتها بالثمرة وعضها الطرف عن الشجرة التي أنبتتها، ذلك أن النقد الثقافي إنما ولد ونشأ وترعرع في حضان الدراسات الثقافية، والدراسات الثقافية في العالم إنما انبثقت من بريطانيا في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، واكتسبت اسمها عام 1964 عندما أنشئ مركز جامعة برمنغهام للدراسات الثقافية المعاصرة، ومعنى هذا أنها مدينة بنشأتها وتطورها لعوامل تاريخية شهدتها بريطانيا في تلك

وشيلاغ ديليني، و جوان ليتيلوود صاحب ورشة المسرح، وكلايف بيكر وأرنولد ويسكر صاحب مشروع مركز 42، وتشارلز بيكر صاحب بلاغات الإذاعة **The Radio Ballads Generation (3)** مما بات يعرف بـ **جيل الـ (3) Generation** 1956، وإلى انتشار الأغاني الشعبية، الذي عززته صناعة مرافقة أسهمت في الترويج للموسيقى الشعبية، مما أخضع مفهوم الثقافة إلى مساءلة شديدة فحواها أنه ليس ثمة من مفهوم جامع لمختلف أشكالها التي غدت في غاية التنوع، ومعنى هذا أنها لا تشكل ذاتاً متميزة بخصائص محددة مُجمع عليها من جانب مختلف التشكيلات الاجتماعية في المجتمع البريطاني. لقد باتت الثقافة في نظر دارسيها المعاصرين، كما تصفها سوزان بازنيت -أستاذة الأدب المقارن والدراسات الثقافية في جامعة ووريك- شبكة معقدة من الأنظمة المختلفة، إنها "برج بابل" من اللغات المختلفة(4).

2. **وثانية هذه الحقائق هي العوامل المختلفة التي شكلت الدراسات الثقافية البريطانية وحكمت مسارات تطورها عبر ما يقرب من نصف قرن.** وربما كان من أبرز هذه العوامل:

• **أعمال مجموعة مؤرخي الحزب الشيوعي** التي سعى أعضاؤها، الذين تخرّج معظمهم في جامعتي كامبريدج أو أكسفورد، إلى خدمة قضايا الطبقة العمالية من خلال نشر الوعي بأهمية دورها في صنع التاريخ البريطاني، وذلك بنشر دراسات تنظر إلى التاريخ من القاعدة إلى القمة، وتعنى بشكل خاص بالتاريخ الاجتماعي لبريطانيا، بغرض تقديم تفسير ماركسي للتاريخ الإنكليزي والبريطاني. وبعبارة أخرى لقد جهد مؤرخو الحزب الشيوعي ليخدموا من خلال عملهم هذا الطبقة العمالية وذلك بتقديم تاريخ

ومن المؤسف أن جلّ من كتب في النقد الثقافي بالعربية غابت عنه جملة من الحقائق التي لا بد من استيعابها حتى يتم استيعاب معطيات هذا النقد، والإفادة منها في تدبر الأشكال الثقافية التقليدية والحديثة والمعاصرة والراهنة والتي أنتجتها المجتمعات العربية عبر العصور المختلفة، محفوزة بشروط وظروف حكمت إنتاج هذه الأشكال مثلما حكمت استهلاكها من جانب فئات هذه المجتمعات.

1. **وأولى هذه الحقائق هي ارتباط ظهور هذا الضرب من الدراسات بتطورات المجتمع البريطاني في العقود التي تلت الحرب العالمية الثانية.** فقد كانت الدراسات الثقافية عندها ومنذ ذلك الوقت، على حد تعبير ستيوارت هول "تأقلماً مع بيئتها، لقد كانت ممارسة تأملية، وتطوّرت دائماً من منبث مختلف عن الدراسات المتداخلة المعارف interdisciplinary studies، وعن الحقول المعرفية "disciplines"(2).

والمتتبع للتاريخ البريطاني الحديث يستطيع أن يتبين بسهولة أن هذه العقود قد شهدت صعود الطبقة العاملة فيها وتنامي دورها الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والثقافي، حيث عني اتحاد النقابات العمالية بتعليم الكبار من هذه الطبقة، في حين عملت الدولة على تقديم منح دراسية سخية للمتفوقين من أبناء هذه الطبقة ويسرت بذلك انتقالهم إلى صفوف الطبقة الوسطى. وكان أبرز حصيلة لهذه التطورات ظهور أشكال ثقافية جديدة، ونتائج ثقافية وأدبية جديدة لمبدعين من الطبقة العمالية، فضلاً عن ظهور منظمات ومؤسسات ترعى هذا النتاج الجديد. ويستطيع المرء أن يشير في هذا السياق إلى ظهور أعمال لروائيين ومؤلفين مسرحيين ينتمون إلى الطبقة العمالية من أمثال: ألن سيليتو،

ولكن منطلق هؤلاء الرواد كان ما تعلموه على يد إف، آر، ليفينز، أبرز نقاد الأدب والثقافة في تلك المرحلة، وأشدهم بأساً في الدفاع عن ثقافة النخبة مقابل الثقافة الشعبية popular culture التي رأى فيها تهديداً للثقافة الإنكليزية العليا English high culture، غير أن انطلاقهم من النقد الأدبي لم يمنهم من السعي الحثيث لتجاوز ما انطوى عليه من نزعات شكلية formalism، ونخبوية elitism، وجمالية aestheticism. وقد تحقق لهم ذلك بالالتفات إلى المتلقي، وبالتحديد: الجمهور- القارئ، ومحاولة الإجابة على أسئلة من مثل: من الذي يقرأ النص؟ وأين؟ ومتى؟ وكيف، ولماذا؟ وهي المسائل التي تُجوهلت من جانب الدراسة الأدبية التقليدية.

وهكذا فإنهم وجدوا أنفسهم مضطرين إلى الالتفات إلى العلوم الاجتماعية، كعلم الاجتماع، والإثنوغرافيا، والتاريخ، والتاريخ الاجتماعي حتى يتمكنوا من وضع النص في السياق الذي يبرر الاستجابة الجماهيرية من جانب، ويوضح معنى القراءة لهذا النص، بوصفهما شكلين من أشكال الثقافة التي ينتجها نشاط المجتمع برمته، مع اهتمام خاص بالتجربة الفردية، بالذاتية، كما تعاش على نحو فعال يسهم في خلق الثقافة (7).

• **وأعمال مجموعة كبيرة من المفكرين الماركسيين الأوربيين**، التي تُوَسَّط اليسار الجديد في إتاحتها، من خلال مجلة اليسار الجديد New Left Review، ودار النشر المرتبطة بها فيرسو Verso، للعاملين في ميدان الدراسات الثقافية، ولاسيما أعمال أنطونيو غرامشي، ولوي ألتوسير، ومدرسة فرانكفورت، وهو ما أكده ستيوارت هول، أبرز منظري الدراسات الثقافية في مرحلتها المتقدمة - مرحلة البنيوية، ومرحلتها الراهنة: مرحلة ما بعد البنيوية والمادية الثقافية،

كلي Total History، وتاريخ من القاع إلى القمة History from Below، يعنى بها وبغيرها من الطبقات الدنيا في المجتمع، حتى يكون تاريخاً للشعب من وجهة نظره (5).

• **وأعمال الرواد الأوائل في ميدان الدراسات الثقافية الذي شكلت نصوصهم المنطلقات الأساسية لهذه الدراسات في العقود القادمة**، والتي تضم كتاب ريتشارد هوغارت فوائده معرفة الكتابة والقراءة، The Uses of Literacy (1957)؛ وكتاب ريموند ويليامز الثقافة والمجتمع: 1780-1950، Culture and Society (1958)، وكتاب بي. إي، تومبسون صنع الطبقة العاملة الإنكليزية، The Making of English Working Class (1963). وأهم ما قدمته هذه الكتب هو الترويج لمفهوم في الثقافة مابين تماماً لما كان سائداً في التاريخ الثقافي البريطاني من أن الثقافة هي الثقافة العليا للنخبة التي تحمل هوية الأمة وتجمع ما بين أفراد الدولة القومية. وخلص مفهوم هؤلاء الرواد للثقافة هو أن الثقافة "تتعلق بطريقة الحياة برمتها، ومن ثم فإنها ليست امتيازاً لأية طبقة محددة، أو أي نخبة فكرية" (6).

وقد كان لاعتقادهم الجذري هذا تأثير هائل وفوري في التقليد الأدبي البريطاني، الذي احتفظ بعناية ملحوظة بالوضع الأخلاقي للثقافة، ولكنه استبعد منها الأشكال الثقافية التي كان ينتجها الشعب، مفضلاً عليها ما تنتجه النخبة المرتبطة أساساً بطبقة النبلاء والطبقة الأرستقراطية أو طبقة السادة، وربما كان أوضح مظهر لهذا الانقسام في المجتمع البريطاني، أن البرلمان البريطاني يضم حتى يومنا هذا مجلسين هما مجلس العموم House of Commons، الذي يمثل الشعب بطبقاته الوسطى والدنيا، ومجلس اللوردات House of Lords، الذي يمثل الطبقة العليا في هذا المجتمع.

المشهورة بعنايتها بالعلوم الاجتماعية والسياسية ساغا SAGA، وما تنشره من سلاسل كتب لا تتصل فقط بالثقافة البريطانية، بل تتناول كذلك الثقافات القومية الأوروبية: الفرنسية، والألمانية، والإيطالية، والروسية، والأمريكية، والأمريكية اللاتينية، وغيرها، وتسعى إلى دراسة مختلف جوانب الأشكال الثقافية الرسمية والشعبية التي تنتجها هذه الثقافات بمختلف الأدوات.

4. **وأما رابعة هذه الحقائق** فهي ما خضعت له الدراسات الثقافية البريطانية من تطورات مضت بها من مرحلة النزعة الثقافية Culturalism في عقد الستينيات التي تم فيها الربط الوثيق بين الثقافة والمجتمع، إلى مرحلة النزعة البنيوية Structuralism والتي سادتها الخلطة الماركسية- البنيوية، أو البنيوية الماركسية، ولاسيما أفكار ليو ألتوسير، وأنطونيو غرامشي وغيرهما؛ إلى مرحلة النزعة ما بعد البنيوية Post-structuralism، والمادية الثقافية Cultural materialism، اللتين سادتا الدرس الثقافي، والنقد الثقافي منذ عقد الثمانينيات.

والى جانب كل ما تقدّم ثمة التطورات التي لحقت بالدراسات الثقافية في مختلف أنحاء العالم، بعد انتشار ما يمكن دعوته بالدراسات الثقافية القومية، والإقليمية، والقارية. فقد توسعت دائرة اهتمام هذه الدراسات لتشمل قضايا من مثل قضية السكان الأصليين (في أستراليا والأمريكيتين)، وقضية المهاجرين (في أوروبا بشكل خاص) وقضية الدين (في مختلف مواقع انتشار المهاجرين المسلمين في الأمريكيتين وأستراليا وأوروبا) وقضية العرق (ولا سيما في أمريكا الشمالية وأوروبا) وقضايا المرأة ومختلف أشكال التمييز التي يشهدها عالمنا المعاصر، عالم العولمة والانتقال والمهاجرة والمنافي.

عندما كتب في مقالته - المرجع: "انبثاق الدراسات الثقافية وأزمة العلوم الإنسانية":

"دون هذه النصوص الأوروبية، والتي لم يكن أحد يقرأها ضمن المؤسسة الأكاديمية، فإن الدراسات الثقافية لم تكن لتطور مشروعها، لم تكن لتبقى حية، ولم تكن لتصبح ميدان عمل بكل معنى الكلمة" (8).

3. **وأما ثالثة هذه الحقائق** فهي دور المؤسسات البحثية والجامعية ومؤسسات النشر في نشأة هذا الضرب من الدراسات، وفي تطوره، وفي انسراجه في مختلف المسارات. ففي مجال المؤسسات البحثية يستطيع المرء أن يشير إلى الدور الذي أداه مركز جامعة بيرمنغهام للدراسات الثقافية المعاصرة (9) في تعزيز مكانة هذه الدراسات في الجامعات والأكاديميات العلمية في بريطانيا بشكل خاص، وخارجها بشكل عام؛ أما في مجال النشر الأكاديمي والثقافي فيمكن أن يشار إلى ما يسرته دور مجلة اليسار الجديد New Left Review الشهرية، ومجلة Screen والمجلات الأخرى الكثيرة (10) التي تنصدر المشهدين الجامعي والثقافي في عالم إنتاج المعرفة الإنسانية، من فسح للتفاعل ما بين أفكار اليسار البريطاني الجديد والماركسية الأوروبية، والفكر الفلسفي والإنساني عامة.

وأما في مجال نشر الكتب فيمكن الحديث، على سبيل المثال لا الحصر، عن دار النشر فيرسو Verso، الملحق بمجلة اليسار الجديد، وعن دور نشر عديدة من أمثال مطبعة جامعة أكسفورد، ودار النشر الجامعي أرنولد Arnold، ودار النشر العالمية روتلندج Routledge، ودار النشر المعروفة بسلسلة مكتباتها في مختلف الجامعات البريطانية بلاكويل Blackwell، ودار النشر الدولية

“The Emergence of Cultural Studies and the Crisis of the Humanities”,  
**October**, Vol.53,  
**The Humanities as Social Technology**,  
 (Summer, 1990), p. 11.

3- انظر:

Susan Bassnett, “Introduction: Studying British Culture”, in:  
**Studying British Culture**, Edited by Susan Bassnett,  
 (Routledge, London and New York, 2003), p. xvii.

4- المرجع نفسه ، ص: xvii.

5- انظر:

**A Dictionary of Marxist Thought**, Second Edition,  
 Edited by Tom Bottomore, Lawrence Harris, V. G. Kiernan and Ralph Miliband  
 (Blackwell, Oxford, 1991), pp. 58-61.

6- انظر:

Susan Bassnett, “Introduction: Studying British Culture”, p.xvi.

7- انظر:

Anthony Easthope, “But What is Cultural Studies?”, in:  
**Studying British Culture**, Edited by Susan Bassnett,  
 (Routledge, London and New York, 2003), p. 5.

8- انظر:

Stuart Hall,

“The Emergence of Cultural Studies and the Crisis of the Humanities”,  
**October**, Vol.53,  
**The Humanities as Social Technology**,  
 (Summer, 1990), p. 16.

9- يمكن العودة إلى المراجع التالية بغرض معرفة المزيد عن دور هذا المركز في تطوير الدراسات الثقافية البريطانية:

Michael Green,

“The Centre for Contemporary Cultural Studies”, in:  
**Re-Reading English**, Edited by Peter Widdowson  
 (Methuen, London and New York, 1982), pp. 77-90.

5. وثمة أخيراً علاقة هذه الدراسات الثقافية بـ “الأخر” وذلك عندما يتصل تدبرها بتعلم لغة هذا “الأخر”، فتعلم الإنكليزية أو الفرنسية أو الألمانية في بلدان تقع خارج دائرة الناطقين بهذه اللغات على سبيل المثال، وما يتطلبه التواصل فيها من وعي كاف بالسياق الذي تستعمل فيه، يقتضي اللجوء إلى دراسة مختلف وجوه الحياة الخاصة بالناطقين بهذه اللغات، ومعرفة المؤسسات العاملة في مجتمعاتها، وتبين مختلف أشكال الثقافة المنتجة من جانب تلك المجتمعات، ومن ثم إلى ضرورة إدراج مسافات تعنى بالثقافات المعاصرة المنتجة بهذه اللغات وفي مجتمعاتها المختلفة.

وفضلاً عما تقدم فقد أثرت هذه الدراسات في دراسة الآداب القومية المتصلة بها، وبخاصة بعد تبدد الحدود الفاصلة بين الثقافة العليا، والثقافة الشعبية، ومن ثم خضع النقد الأدبي الذي يتدبر هذه الآداب إلى تحولات جذرية منهجياً وتقنياً ينبغي أخذها بالحسبان عند التفكير بالإفادة من تجارب الأمم الأخرى في تدبر أدبها وثقافتها.

### المصادر والهوامش

1- انظر:

د. عبد الله الغدامي،

### النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية

(المركز الثقافي العربي، بيروت، 2000م).

“النقد الثقافي: رؤية جديدة”،

فصول: مجلة النقد الأدبي (القاهرة)، العدد (59)،

ربيع 2002م، ص ص (45- 53).

2- انظر:

Stuart Hall,

**Critical Inquiry, Cultural Studies,  
Diacritics, Discourse, Feminist Studies,  
Media, Culture and Society,  
Representations, Signs, Social Text, Works  
& Days.**

ومن السهل على المرء ملاحظة أن عناوينها تشي  
باهتماماتها الرئيسية، مثلما تشي باهتمامات  
الدراسات الثقافية والنقد الثقافي عامة.

**Key Concepts in Cultural Theory**, Edited  
by Andrew Edgar and Peter Sedgwick  
(Routledge, London and New York, 1999);

David Harris,

**From Class Struggle to the Politics of  
Pressure:**

**The Effects of Gramscianism on Cultural  
Studies**

(Routledge, London and New York, 1992).

10- يمكن أن يشير المرء إلى أبرز المجالات التالية،  
والتي تنشر أهم الإسهامات المعاصرة في الدراسات  
الثقافية والنقد الثقافي:

